التفاعل الحضاري بين الذات والآخر
ورهان التكامل المعرفي

الأستاذ مولاي إسماعيل الفاضيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة شعيب الدكالي
المغرب

مقدمـة:

يعتبر التفاعل بين الذات والآخر رهان الإنسان بشكل عام من مختلف الديانات والثقافات عبر العصور، بل ومنذ خلق الإنسان، ذلك أن التواصل بين أبناء الشعوب المختلفة كان سمة مميزة للجنس البشري على وجه الأرض، فما من حضارة أو أمة أو شعب إلا وسعى للتواصل مع الآخر الغريب أو البعيد، وذلك من أجل تبادل الخبرات واستلهام المميزات ونقل التجارب على كافة المجالات.

إن إشكال التفاعل بين الذات والآخر كان من المواضيع التي أثيرت منذ القدم في الفلسفات والحضارات الإنسانية بشكل عام، ويزداد هذا المطلب إلحاحا وحضورا كلما تطور الفكر الإنساني واتسعت مداركه وتنوعت معارفه وتشعبت مسالكه، فكان كل ذلك مدعاة لظهور إشكالات معرفية وحضارية تقتضي البحث عن الآخر للتواصل، والاستمداد المعرفي، والفكري، والحضاري.

من هنا تتمثل أهمية هذا الموضوع في كونه يقف عند إشكالية التكامل المعرفي ودورها في التفاعل الإيجابي بين الذات والآخر، والذي يمثل مدخلا أساسيا للنهوض بالفكر الإسلامي والانفتاح الحضاري، وذلك للانتقال من مجرد الدفاع والتبرير إلى الحضور والشهود الحضاري للأمة الإسلامية. إنها الأمة التي نعني بها في موضوعنا هذا بالذات الحضارية، وهي في مقابل الآخر والذي يحيل عندنا على مسمى الحضارة الغربية أو بالتحديد التي لا تنتمي لحضارة الإسلام بشكل عام.

لقد اهتم الفلاسفة المعاصرون والمفكرون في الحضارة الغربية والعربية الإسلامية بموضوع التكامل والتواصل الحضاري بين كل مكونات العنصر البشري، ذلك أن البعد المعرفي للحضارات الإنسانية يحتم عليها النظر من زاوية المعرفة الكونية، أو كونية المعرفة، وهنا يمكن الحديث عن معرفة لا قومية ولا دينية بل حضارية تعم الإنسان وتنقل وتوظف لخدمة الانسان بما هو إنسان، فقد كان للمفكرين في العصور السابقة قصب السبق في تمثيل التكامل المعرفي لما نقلوا المعارف الغربية التي لم تكن إلا معارف متراكمة من حضارات متنوعة متنقلة من حضارات بلاد الرافدين وفارس والصين والهند ثم اليونان... وهكذا إلى أن وصلتنا بهذا البعد الكوني الحضاري، وفي كل مرحلة من مراحل التطور الحضاري تكتسب المعرفة تطورا وتنوعا وتغيرا بتغير أحوال البشرية ومتطلبات الإنسانية.

ولعل حديثنا هنا عن مفهوم "التكامل المعرفي"، يحيلنا على الجدل الذي صاحبه من حيث دلالته أو قبوله من رفضه أيضا جملة وتفصيلا، فهناك من رفض كل سعي إلى التكامل بين العلوم، متشبثا بضرورة التخصص المستغني عن غيره من العلوم والمعارف.

يقول محمد همام حول تعريف المفهوم، بعد عرض تعاريف كثيرة للتكامل المعرفي لعلماء ومفكرين من تخصصات مختلفة، تبرز من خلالها نظرة كل تخصص لمفهوم التكامل المعرفي. فحاول بعد ذلك تلخيصها وعرضها في قالب واحد قائلا: "لكن التعاريف جميعها لا تخرج عن اعتبار تداخل المعارف تبادلا أو حوارا بين المعارف والعلوم؛ إن على مستوى التحليل، أو المنهج، أو المفاهيم أو النظريات، بين علمين فأكثر، مما يحقق الثراء والإبداع، عبر المقاربة الشمولية والمتكاملة للظواهر المعرفية المتداخلة العناصر والمكونات."[1]

إن التكامل المعرفي بهذا المعنى يقتضي تظافر الجهود وبسط اليد بين العلوم، سيما وأن العلوم غير مستقلة بذاتها وإن كانت متخصصة، بل وإن كانت متمرسة في زاوية متينة التحصين شديدة التعقيد والتميز عن غيرها من العلوم، فإنها تبقى دوما في حاجة إلى غيرها من العلوم والمعارف، فحاجة العلوم بعضها لبعض ضرورة وجودية لا انفكاك عنها ولا مهرب ولا مفر.

لقد حاولنا في هذا المقال الوقوف على هذا الموضوع بشكل مقتضب، لكنه يروم مع ذلك تركيز الأفكار حول مطلب التكامل المعرفي وإسهامه الحضاري في التفاعل بين الذات الآخر. وقد أوردناه في مقدمة وثلاثة محاور، منطلقين من تاريخ المعرفة الإنسانية وخاصية التكامل في المحور الأول، ثم في المحور الثاني وقفنا عند التفاعل بين الذات والآخر، أما المحور الأخير فقد خصص لاستشراف مستقبل المعرفة في ظل التفاعل بين الذات والآخر.

المحور الأول: تاريخ المعرفة الإنسانية وخاصية التكامل

لقد كان للحضارة الإسلامية الدور الفاعل في حفظ الموروث المعرفي الإنساني الذي اكتسبته من الحضارات السابقة.

ذلك أن المعرفة تدخل في نطاق المشترك الإنساني بدءا من أصل الخليقة، وبداية اهتمام الإنسان بالمعرفة كصناعة، وحاضر أصبح العالم فيه قرية صغيرة. فكل الأحداث التي تقع في بلد أو حضارة ما، إلا وتجد صداها في البلدان والحضارات الأخرى، تأثيرا وتأثرا، إن خيرا أو غير ذلك. ثم المستقبل حتما سيكون مصيرا مشتركا للإنسانية جمعاء، ما يحتم عليها العمل على الوصول إلى ما يضمن سعادتها ورخاءها، لا دمارها وفناءها من أجل إرث علمي معرفي سليم من أخطاء الماضي للأجيال القادمة.

يقول ابن خلدون: "اعلم أن الله سبحانه وتعالى اعتمر هذا العالم بخلقه وكرم بني آدم باستخلافهم في أرضه، وبثهم في نواحيها لتمام حكمته، وخالف بين أممهم وأجيالهم..."[2]

يتحدث ابن خلدون هنا عن عمارة الأرض بخلق كثير، لحكمة أرادها الله سبحانه، ثم اصطفى الإنسان من بين هذه الخلائق، وهو المكرم بالعقل، ليكون خليفة في الأرض. هذا العقل هو الذي يوظفه للوصول إلى الغايات الحميدة.

ثم أرسل الله رسله تترا، ليذكروا الناس بوظيفتهم التي من أجلها خلقوا، بدءا بأب البشرية آدم عليه السلام، إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين. وقد أشار روجي جارودي إلى الآفاق الواسعة للعقل المستنير بنور الوحي، فيقول: "عندما جعل الله الإنسان خليفته على الأرض أعطاه كل الوسائل لإتمام مهمته: أعطاه العقل، عقل شامل مطلق يبحث عن الأسباب وعن الغايات أيضا، عقل يرى كل شيء دليلا على وجود الله وفعله."[3]

هذا التمييز من الله تعالى لخلقه بالعقل والبيان، لم يميز بين المؤمن والكافر ولا المشرك والموحد، فالكل عبيد لله سبحانه. والكل مطلوب منه البحث والمعرفة وطلب الاستزادة من أجل الوصول إلى المعرفة التي بها سعادة الإنسان في الدنيا وتيسير كل أمور دنياه وسعادة آخرته. إنه العقل الذي كفل الإنسان منذ بدء الخليقة وكلف من أجله الاستخلاف في الأرض.

ثم يضيف عبد الرحمان بن خلدون عن التنوع البشري: "فمنهم العرب والفرس والروم وبنو إسرائيل والبربر، ومنهم الصقالبة والحبش والزنج، ومنهم أهل الهند وأهل بابل وأهل الصين وأهل اليمن وأهل مصر وأهل المغرب. ومنهم المسلمون والنصارى واليهود والصابئة والمجوس..."[4]

واقتضت حكمة الله كذلك أن يختلف الناس في ألوانهم وأعراقهم وعقائدهم ولغاتهم... اختلاف تنوع وثراء، لا صراع وتنابز وتناحر، وقد خلقهم الله سبحانه من أصل واحد. لكن عندما يتعلق الأمر بالمعرفة، تنمحي كل هذه التصنيفات فوحدها هي التي

تتمتع بحرية الانتقال بين الحضارات والأعراق والديانات، وتنتشر بين كل الشعوب انتشار الشعوب في كافة المعمورة، سنة كونية ماضية إلى ما الله به عليم من مستقبل الانسان على وجه الأرض.

قال الله سبحانه وتعالى: "ومن آياته أن خلقكم من تراب فإذا أنتم بشر تنتشرون"[5]

يشير سيد قطب إلى هذا التقابل بين التراب الميت، وهو الأصل البعيد للإنسان، والإنسان الحي المنتشر في الأرض، فيقول: "للمقابلة في المشهد والمعنى بين التراب الميت الساكن والبشر الحي المتحرك... وإيحاء كذلك بالصلة الوثيقة بين البشر وهذه الأرض التي يعيشون عليها؛ والتي يلتقون بها في أصل تكوينهم، وفي النواميس التي تحكمهم في نطاق الوجود الكبير."[6]

هنا يحيل سيد قطب، انطلاقا من هذه الآية، إلى المشترك الإنساني الأول وهو الخلق من أصل واحد، ثم التاريخ المشترك للبشرية والذي ينطلق من بدء الخليقة من طين، ثم إنسان فبشر منتشرون. وانتشارهم هذا يحتم عليهم التواصل والتفاعل بين الذوات المشكلة لكل ملة وحضارة ودين استلهاما لكل التجارب، والخبرات، والمهارات والمعارف.

فخلال ملايين السنين من عمر البشرية على الأرض، كان محرك الإنسان نحو التقدم هو المعرفة التي يستقيها من غيره من الحضارات، ثم مدى قدرته على تطويرها ونسجها في قالب متكامل متداخل بين مختلف أصناف المعرفة خدمة له، وهو الغايات التي يصبو إليها من تأمين لحياته وكده لكسب قوته. سُنّة الله في خلقه.

وهنا نستحضر آخر ما كتب المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون، من استشراف مستقبل أفضل للإنسانية جمعاء.

كتب لوبون: "يمكننا أن نحلم بإنسانية قادمة تختلف عن الإنسانية الحاضرة اختلاف هذه الأخيرة عن آدميي ما قبل التاريخ الابتدائيين، وهذا حُلم لا ريب، ولكنه حلم أقرب إلى الحقيقة من الأحلام التي تسيطر على العالم حتى الآن، فلا ينبغي أن يطعن فيها ما رَفَعت الإنسانية من الوحشية إلى الحضارة."[7]

لقد انطلق غوستاف لوبون من البعد التاريخي المشترك للإنسانية بما فيها من إرث حضاري ومعرفي متكامل، ثم في تطورها من التوحش إلى الحضارة، ليرسم مستقبلا أكثر حضارة ونموا وسعادة، وهو مستقبل يرسم بفكر أهل المعرفة، والعلوم المتنوعة، ثم ينزل منزلة التطبيق بأيدي أهل السياسة والقرار. فقد عرف التطور المعرفي مراحل متنوعة، آخرها ما نشهده اليوم مما يثير بعض المخاوف من انحراف المعرفة الإنسانية من تحقيق سعادة الانسان إلى تحطيم الانسان.

ومن المفيد الوقوف عند تلخيص روجي جارودي لتاريخ البشرية في صراعه المعرفي والعلمي وحضاري مع الوجود والموجودات بشكل عام على وجه الأرض، فيقول: "ومن الجائز أن نميز في تاريخ البشرية مراحل أساسية ثلاثا:

مرحلة تتجاوز فيها قدرة الطبيعة قدرة الإنسان، ومن ثم ينبغي على الإنسان أن يقاتل وينافح لمجرد البقاء.

مرحلة تجاوز قدرة الإنسان قدرة الطبيعة.

وأخيرا المرحلة التي نعيشها منذ منتصف القرن العشرين وفيها تجاوز قدرة الإنسان طاقة الإنسان... في المرحلة الأخيرة مازلنا لا نعرف أن نحدد لأنفسنا غايات حقيقية، ولا أن نسيطر على وسائلنا."[8]

فالمرحلة الأولى من مراحل تاريخ البشرية، كان فيها الإنسان يسعى للسيطرة على الطبيعة، من خلال البحث عن المعرفة المخلصة من الجهل وقساوة العيش. وهو ما خلدته فيما بعد الكتب القديمة، كملحمة (كلكامش) وبعدها بحوالي ألف وخمسمئة عام: (الأليادة).

إن أبرز مجال ركز عليه جارودي للتعبير عن التاريخ المشترك للمعرفة البشرية، هو المجال العلمي، ذلك أنه يرى في العلوم الموروثة من حضارة إلى أخرى ومن جيل إلى آخر موروثا تاريخيا مشتركا بين البشر.

إنها الصيرورة المعرفية التراكمية عبر العصور، وبين الحضارات، وإلى هذا يشير الدكتور سالم يفوت بعرضه لمواقف فلاسفة حول الموضوع، فيقول: "لقد سبق للفيلسوف الفرنسي باسكال أن أثبت الطابع المتراكم والمتقدم للمعرفة البشرية، بالتأكيد على أن المعارف ينضاف المتأخر منها إلى المتقدم ليزيده غنا وثراء، بحيث لا تنحصر استفادتنا في ما أوصلنا إليه البحث والتنقيب، بل تشمل ما ورثناه عن أسلافنا وما سيتوصل إليه أحفادنا بعدنا. إنها مجموع إسهامات واجتهادات بني البشر قديمهم وحديثهم.

كما شبه فونتيل تطور المعارف البشرية وتناميها بتطور البشرية جمعاء."[9]

إن هذا التأكيد على البعد التراكمي التكاملي والتاريخي للمعرفة والعلوم، ثم اعتبارها مشتركا إنسانيا من طرف الفلاسفة والمفكرين، ومن طرف رواد حوار الحضارات، يعكس البعد المشترك بين البشرية للموروث الثقافي والفكري. وهو الكفيل بالتفاعل الإيجابي بين الذات الحضارية والآخر.

يعطي روجي جارودي المثال للمشترك الإنساني التاريخي، في مجال العلوم تحديدا، وينكر على من يدعي امتلاك أصل العلوم الرياضية، فهي ميراث تاريخي مشترك بين البشر، كما لا يمكن لأي حضارة أن تنسب لنفسها بناء صرح علوم الرياضيات بالقطيعة عن الحضارات المتلاحقة.

وهنا يقف على مثال التطور الذي حدث للرياضيات بانتقالها من الحضارة الإغريقية إلى الحضارة الإسلامية فيقول: "الرياضيات الإغريقية كانت تقوم على مفهوم النهائي، والرياضيات العربية تقوم على مفهوم اللانهائي."[10]

فالمعرفة التاريخية ترتبط بالواقع وبالتسلسل التاريخي.

يقول عثمان الخشت: "الصفات الأساسية للمعرفة:

1- المعرفة انعكاس ذاتي للواقع الموضوعي.

2- المعرفة تسلسل تاريخي متنام بلا انقطاع..."[11]

هذا التسلسل التاريخي المتنامي للمعرفة، كان في مجمله لخدمة الإنسان، ولهذا يشير جارودي إلى هذه القيمة الإنسانية في بعض الحضارات، ومنها الشرقية، فيقول: "فلا العلوم الصينية، ولا الهندوسية ولا الإسلامية كانت منظمة بمعزل عن الإنسان، بل كانت في خدمته."[12]

لقد عرفت هذه الحضارات ببعدها الإنساني والقيمي، حيث ورثت بعدها الحضارات الأخرى هذا الصرح التاريخي العظيم، متمثلا في العلوم والفلسفة والقيم...

وهذا التاريخ المشترك للإنسانية، وتلاقح العلوم وتطورها من حضارة إلى أخرى، إنما جاء نتيجة تواصل بين الحضارات، وتفاعل فيما بينها في شكل لقاءات قديمة، أملتها ضرورة العيش المشترك بين بني الإنسان في كافة العصور والأزمان.

فالنظرة الجامعة للتاريخ، والمتعالية عن حضيض الاختلافات والأيديولوجيات، هي من تمكن الدارس والمفكر من استخلاص العبر لمستقبل البشرية، ومصيرها المشترك.

المحور الثاني: التفاعل بين الذات والآخر على أرضية المعرفة المتكاملة المشتركة

إن من أهم ما يميز الإسلام هو كونه رسالة سماوية شاملة للحياة البشرية كافة، فلا تقتصر على الجانب العبادي فقط، بل ومن لب العبادة النظر في الموجودات تفكرا وتدبرا، على يد العلماء وأهل المعرفة حيث ينبعث وازع التفاعل مع المعرفة البشرية في قلوب العباد تصديقا، وعقول المفكرين فهما وتثبيتا. إنهم من خصهم الحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها."[13]

إذا كان علماء الأمة قد تحدثوا عن تجديد الدين وفصلوا في ذلك تفصيلا، فإن خلاصة ما ذهبوا إليه تدور حول كون المجدد لا يقتصر على شخص واحد بل أشخاص كثر، كما أن التجديد لا يعني مجال معين كالفقه أو التفسير فقط، بل يشمل كافة المجالات التي تشكل مدار اهتمام الإنسان المسلم المعرفية الفكرية والتعبدية والمعيشية... ومنه يمكن استخلاص تعدد مجالات التجديد التي يشملها مسمى الدين، والدين أساسا شامل لكل مناحي الحياة، ومنه نخلص إلى أن التجديد والإصلاح يحيل في عصرنا هذا على إحياء العلوم وتطويرها بما يخدم مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة في تكاملها وترابطها وانسجامها، وهي علوم مرتبطة في عمومها بمجالات العلوم البشرية المتنوعة المتباينة، من علوم شرعية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية...

إذا رجعنا إلى نموذج ابن رشد الفيلسوف، نجده حريصا على تحقيق التكامل بين العلوم، والانفتاح على الآخر المخالف، وكان ذلك ديدن كل العلماء أو جلهم في تلك العصور حيث تميز العلماء بما نسميه في عصرنا هذا بالموسوعية، ما حقق لهم النظر في العلم الواحد من زوايا متعدد وبمرجعيات متنوعة تساهم في إغناء الموضوع محل البحث. وهنا نستحضر قول محمد حسين الأنصاري حول خاصية التكامل المعرفي عند هذه الطائفة من العلماء فيقول: "فالتكامل تعاون وتعاضد، وفي فكرة تصنيف العلوم التي اشتهرت قديما لدى العلماء من أغراضها الرئيسية: تحقيق التكامل للإنسانية وإسعادها. فأنواع العلوم تتقاسم الأدوار والمهام؛ للقيام بكافة حاجيات البشر."[14]

نستخلص مما سبق أن التكامل المعرفي الذي نعني هنا هو ذلك التكامل المنبني على قابلية التفاعل مع المعارف البشرية كلها، ذلك أن كل عالم أو مفكر في مجال من مجالات الفكر الإنساني، لابد له من استحضار العلوم الأخرى والنظر من زاوية علم تخصصه إلى باقي العلوم في تكامل وتداخل يساهم في احترام سنة الاختلاف الكونية، وهو ما يطلق عليه بالتكامل المعرفي الكفيل بتحقيق النظر الشمولي للعلوم المتباينة في تكاملها خدمة لمصلحة العلم والإنسان.

في هذا الصدد نقف مع طه عبد الرحمان الذي فصل في أنواع التكامل بين العلوم فيقول: "اعلم ان التداخل تداخلان اثنان: أحدهما داخلي يحصل بين العلوم التراثية الأصيلة بعضها مع بعض؛ والثاني، خارجي يحصل بين هذه العلوم وغيرها من العلوم المنقولة."[15] فإن تحقيق مراد الله في الخلق لابد أن يستحضر طبيعة الإنسان المركبة وتشابك العلوم بعضها مع بعض، وحاجة بعضها لبعض. فالتداخل والتكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية أمر حادث وارد ومسلم به إلا ما نذر، أما التداخل بين العلوم الإسلامية وغيرها من العلوم فهو الذي تحدث عنه طه عبد الرحمان بالتكامل الخارجي، وهو ما يثري التجربة العلمية ويوسع مدارك الإنسان في سعيه لتطوير المعرفة الإنسانية وتنميتها وتجويدها؛ حاضرا ومستقبلا.

يورد إدغار موران نظرته للمعرفة في شكل مستقبل العلم فيقول:

"العلم الجديد: من أجل وحدة العلم.

إننا نطرح إمكانية وضرورة وحدة العلم، بطبيعة الحال فإن مثل هذه الوحدة مستحيلة وغير مفهومة داخل الإطار الحالي حيث يتراكم عدد لا يحصى من المعطيات داخل التجويفات التخصصية الضيقة والمنغلقة أكثر فأكثر... لن يكون له معنى إلا إذا كان قادرا على أن يدرك الوحدة والتنوع، والاستمرارية والقطائع في آن."[16]

إن هذا التكامل المعرفي يأتي في إطار التفاعل المستمر بين الذات والآخر المخالف عقديا أو فكريا. هذا التفاعل يقتضي الانفتاح على علوم الآخر ومعارفه استمدادا لكل ما من شأنه أن يفتل في حبل مصلحة الانسان، وما من شأنه أن يكون جسرا للتواصل مع غيره، إنه البحث في نقاط اللقاء بين كل العلوم والمعارف البشرية.

مما لا شك فيه أن هذه الخلفيات التي قادت الفكر الإسلامي إلى الحديث عن الإصلاح الفكري والمعرفي، كانت ضرورات الحياة التي تغيرت كثيرا عما كانت عليه قبل، ما استوجب البحث والتفكير العميقين في السبل الكفيلة بتعبيد الحياة للناس تنويرا، وتيسيرا وفهما وتنزيلا.

لقد كان من رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن فتح لعلمائها باب الاجتهاد وحثهم على التفكير والتفكر معا، وطلب ما يفتح الله به للناس كل الناس من معارف وعلوم ومكنونات أسرار هذا الكون الفسيح، وزادهم تشريفا وتعظيما بأن رفع مقامهم في الدنيا والآخرة، وكفلهم الأجر والثواب عن كل اجتهاد، وعذرهم عند الخطأ أو مجانبة الصواب بعد استفراغ الجهد طبعا..

وعلى هذا الأساس دفع وازع تبليغ رسالة الإسلام للعالمين علماء المسلمين إلى الاطلاع على ما أنتجه العقل البشري من قديم وحديث، ومنهم طائفة كبيرة آمنت بعالمية المعرفة البشرية. إنها المكسب الذي لا يمكن لحضارة ولا لأمة أن تنسبها لذاتها أو تحتكره لها وحدها، فتفاعل الذات والآخر قاعدة بشرية كونية، وهل كان لليونان أو حضارة بلاد فارس من معارف خاصة بهم ثم دفت معهم على التأبيد؟

المحور الثالث: مستقبل المعرفة البشرية في ظل التفاعل بين الذات والآخر

لا شك أن مستقبل التكامل المعرفي في منظور الفلاسفة والمفكرين المسلمين، ينطلق من رسالة القرآن الخالدة، ولقد حسم ابن رشد أمر المرجعية الدينية في كتاباته، ومنها ما ورد في كتاب فصل المقال حيث يقول: "الطرق القرآنية أفضل الطرق لتعليم الجمهور. هي الطرق التي ثبتت في الكتاب فقط. فإن الكتاب العزيز إذا تؤمل وجدت فيه الطرق الثلاث الموجودة لجميع الناس، والطرق المشتركة لتعليم أكثر الناس، والخاصة."[17]

من خلال هذا القول يتضح أن ابن رشد يجعل المرجع الأول في تعلم وتعليم الناس هو المنهج الرباني متمثلا في كتاب الله تعالى. وهذا ما يعني أن مخاطبة الناس كذلك تقتضي اتباع المنهج الرباني المتمثل في احترام مستوى كل فئة من الناس وفهمها ومستواها الفكري والمعرفي، ومنه فإن الحديث عن علاقة الدين بالفلسفة من اتصال أو انفصال، موضوع ينطبق عليه هذا المنهج المستنبط من كتاب الله تعالى، وهنا يمكن الحديث عن حصر الجدال حول علاقة الدين بالفلسفة في فئة من الراسخين في العلم، ولا يمكن أن يتاح أو يتداول مع العامة. ذلك أن النظر الفلسفي في أصله غير ممكن البتة لعموم الناس، ومنه فإن النظر كذلك حتى في مكنونات كتاب الله ليست في متناول الجميع على السواء.

إن النظر العقلي والبحث في كلام السابقين من العلماء والفلاسفة من كل ملة وحضارة أمر ضروري، حسب ابن رشد، مادام هناك علم يمكن أن يفيد الحضارة الاسلامية في سعيها نحو التقدم والازدهار وتحقيق متطلبات الانسان. وهذا يقيده ابن رشد بالمصلحة والصلاح الذي يوافق الشرع وإلا فهو مرفوض مطرود من دائرة النقاش والتداول في الحقل الفكري الاسلامي. وهنا يقول

متحدثا عن ضرورة البحث والنظر للاستفادة مما ألفه الأولون من فلاسفة ومفكرين وعلماء: "إن ما ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرا في الموجودات واعتبارات لها...، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم: فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم."[18]

أما إذا وقفنا على مثال روجي جارودي فإن المتأمل لإنتاجاته ليجدها تبشر بمستقبل الاسلام، ثم كذلك تقترح إمكانات الدخول إلى المستقبل بقوة أكبر حال تم احترام القواعد التي ينبني عليها التشريع الاسلامي، وذلك من خلال النظر إلى الواقع بفكر مستنير متوقد.

من هذا المنطلق فقط يمكن أن نتحدث عن الإسلام الحي المتفجر حيوية وحياة. يقول جارودي متسائلا: "أي مسلمين هم هؤلاء الذين هجروا الإسلام المتفجر حيوية وفضلوا حياة الماضي على حياة المستقبل؟

الرجوع إلى الينابيع هو رجوع إلى الحياة، لا إلى تكرار وتحليل ما كان في الماضي خلقا ومبادرة واكتشافا..."[19]

من خلال كلام جارودي يتضح الفرق بين النظرتين لماضي المسلمين ورصيدهم التاريخي، فالأجدر بكل مفكر أن يضع نصب عينيه النظرة لمستقبل الأمة الاسلامية، وخلاص المسلمين من ربقة التقليد والتبعية للآخر والتوق للعودة لريادة الأمم.

إن الإسلام أعطى الفكر مجالات واسعة للتفكر والتدبر وحث القرآن الكريم على إعمال العقل وأشاد به، ولهذا يؤكد جارودي قائلا: "الإسلام لم يضع قيودا لاستعمال العقل لا في العلوم ولا في الحكمة، بل دعاه أن يجتهد في هذا الاستعمال."[20] إنه المنهج الذي يخالف تماما عقلية الغرب المسيحي زمن سيطرة الكنيسة التي تقيد التفكير وتعدم التحرر إلا من إنتاج الكنيسة في قرون الظلام بالحضارة الغربية.

لقد حدد جارودي الأدوار العلمية والثقافية التي كانت تضطلع بها قرطبة في عهد ابن رشد، فيقول: "لم تكن قرطبة والأندلس في مجال العلوم صلة الوصل في أوروبا بين ثقافات اليونان والشرق فحسب، فإن إسهام علمائها بالرياضيات وفلكييها وكيماوييها ومهندسيها الزراعيين وأطبائها في التطور العلمي كان عظيما."[21]

في هذا العالم من المعرفة والثقافة ازدهرت العلوم الكونية وانتشر الإسلام وكان للفكر الديني مقام الريادة بين الأمم، ولم يكن ابن رشد سوى واحد من العلماء الكثر الذين تميزوا بالموسوعية العلمية، واتساع الأفق المعرفي واتساق العلوم الروحية والعلوم المادية في ذهن وقلب العالم الواحد منهم، من غير أن يكون ذلك عائقا أمام تقدم العلوم أو البحث في مختلف المجالات الفكرية أو النظر في ما أنتجه الأولون، بل كان ذلك سببا في تدفق العلوم وازدهار الحضارة الإسلامية على نحو لم تعرف الحضارة الغربية له مثيلا.

خاتمـــة:

نستخلص من خلال كل ما سبق، أن المعرفة البشرية إرث مشترك بين البشر، وأن التطور العلمي والمعرفي يقتضي النظر في مشاريع علماء الإصلاح والتغيير والتجديد في تاريخ هذه الأمة الخالدة، وكذلك غيرهم من العلماء من كل الحضارات والملل، ثم التمعن في سبل الاصلاح تلك؛ تشخيصا وتنقيحا، استخلاصا للعبر واستنتاجا للمخرجات التي منها كان الاصلاح والتقدم.

إن التكامل بين الذات والآخر يقتضي، ومن خلال ما أدرجناه سابقا، اعتماد منطق التكامل المعرفي من خلال مجموعة من الأسس والمنطلقات. أولاها القطع مع النظرة التجزيئية للمعرفة، واعتبار كل العلوم خادمة لبعضها، ثم النظر إلى امكانية التكامل بين علوم الوحي وعلوم الفلسفة (الحكمة) التي تنير العقل وتسائل الذات والواقع عن كل تفاصيل ومداخل الاصلاح والتغيير. هذا إضافة إلى صوغ منهج يتيح دمج العلوم والمعرف في نسق منسج ومتكامل خدمة للإنسانية.

إن المنطلق الفلسفي كان له الأثر الكبير في توجيه النظر العقلي لموضوع التكامل المعرفي والتفاعل الحضاري بين الذات والآخر. فالدين حياة دافقة وتغيير دائم وتطور مستمر، وليس جمود ونكوص على الأعقاب واجترار لكل ما أنتجه الأولون، وقطع مع كل ما لا يمت لدائرة المعرفة الدينية بصلة، أو رفض كل معرفة تأتي من خارج منظومة المعرفة الإسلامية، كما أن الانحراف إلى الدوران في حلقات رسمها من قبلنا من المفكرين لعصرهم وزمانهم، ما يجعل ذلك حائلا بين الإنسان في هذا العصر والمنبع الصافي: القرآن الكريم والسنة النبوية والتنزيل العملي لهما من خلال الممارسة المستنيرة للجيل الفذ من الصحابة رضوان الله عليهم.

لا يمكن الحديث عن الانفتاح على الآخر والتفاعل معه في ظل سيادة ثقافة الإقصاء لكل ما هو خارج عن دائرة المعارف الاسلامية، ونبذ كل معرفة أنتجتها الحضارات السابقة، حتى وإن كان ظاهرها يفيد معارضة جانب من جوانب الدين وهو ما حصل قبل بخصوص مجالات علمية كثيرة أبرزها علوم المنطق... وفي الوقت ذاته يعتبر التفاعل مع الآخر إيجابا استمدادا وإمدادا سرابا في حال سيطر الفكر المستلب كليا والمتجرد من أصول الدين والتوحيد السليم والعقيدة الصحيحة، والمنتشي برصيد تاريخي من الامجاد التي كانت والتي كان فيها السلف في قمة الريادة الحضارية للإنسانية جمعاء.

وخلاصة القول فإن مدخل التكامل المعرفي لإثبات التفاعل الإيجابي بين الذات والآخر، أمر لا مناص منه ولا محيد عنه، وذلك استنادا إلى كون الفكر الإسلامي مطلوب منه الانفتاح على كل الثقافات والحضارات والمعارف الإنسانية كلها، انطلاقا من كون المرجعية الإسلامية تحتم على المسلمين التواصل والانفتاح على كل الناس استجابة لنداء وأمر رب الناس سبحانه وتعالى الذي جعل الإسلام رسالة للناس كافة ورحمة لبني البشر أجمعين. وصلى الله وسلم على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين.

الهوامش:

[1] – تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: محمد همام، ص: 107، ط: 1، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، 2017م.

[2] – تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمان بن خلدون (ت 808هـ)، تحقيق: خليل شحادة، ج:2، ص: 3-4، دار الفكر، بيروت،2000م.

[3] – الإسلام الحي: روجي جارودي (ت 2012م)، ترجمة دلال بواب ضاهر، ص: 88. ط: 1، دار البيروني، بيروت، 1995م.

[4] – تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمان بن خلدون، مصدر سابق، ج:2، ص: 3-4،

[5] – سورة الروم، الآية: 19.

[6] – في ظلال القرآن: سيد قطب (ت 1966م)، مج: 5، ج: 21، ص: 2763. ط: 17، دار الشروق، مكة المكرمة، 1992م.

[7] – فلسفة التاريخ: غوستاف لوبون (ت 1931م)، ترجمة: عادل زعيتر، ص: 237، دار المعارف، مصر، 1954م.

[8] – حوار الحضارات: روجي جارودي (ت 2012م)، ترجمة: عادل العوا، ص: 37 ط: 4، عويدات للنشر، بيروت، 1999م.

[9]– الزمان التاريخي: من التاريخ الكلي إلى التواريخ الفعلية: سالم يفوت، ص: 16، ط: 1، دار الطليعة، بيروت، 1991م.

[10] – الاسلام وأزمة الغرب: روجي جارودي، ترجمة: رفيق المصري، ص: 18، ط: 1، عالم المعرفة، جدة، 1983م.

[11]– لماذا أسلمت؟: محمد عثمان الخشت، ص: 41، مكتبة القرآن، القاهرة، 1986م.

[12]– Promesses de L'Islam : Roger Garaudy (2012), P : 75, Edition du SEUIL, France, 1981.

[13] – سنن أبي داوود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت275هـ)، تحقيق عبد العزيز الخالدي، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

[14] – سؤال التداخل المعرفي: العلوم الاسلامية بين الاتصال والانفصال: محمد حسين الأنصاري، ص: 29، ط: 1، تكوين للدراسات، السعودية، 2019م.

[15] – تجديد المنهج في تقويم التراث: طه عبد الرحمان، ص: 76/75، ط: 5، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2016م.

[16] – الفكر والمستقبل مدخل إلى الفكر المركب: إدغار موران، ترجمة: أحمد القصوار، ص: 52، ط: 1، دار توبقال، المغرب، 2004م.

[17] – فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة الحكمة من الاتصال: ابن رشد أبو الوليد (ت 1185م)، تحقيق عابد الجابري، ص: 123، ط: 1، بيروت، 1997م.

[18] – فصل المقال: ابن رشد، مصدر سابق، ص: 93.

[19] –المصدر نفسه، ص: 87.

[20] – الإسلام والقرن 21 شروط النهضة: روجي جارودي، ترجمة: كمال جاد الله، ص: 50، ط: 1، دار الجليل، القاهرة، 1997م.

[21]–الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة العالم والفكر: روجي جارودي(ت2012م)، ترجمة: ذوقان قرقوط، ص: 7، ط:1، دار دمشق، سوريا، 1995م.